تموضع الفضاء المغاربي في المعرفة الأنثروبولوجية

ســـاسي سفيـــان: أستـــاذ محـــاضر أ
كلية العلوم الاجتماعية والانسـانية
جامعة الشاذلي بن جديد بالطارف

الملخص

تستوقفنا في هذا السياق، ضرورة موضوعية ترتبط منهجيا ومفهميا بتوظيف مصطلح الفضاء المغاربي. فاستعمال هذا اللفظ له دلالته، لما يمتاز به من قيمة بيداغوجية وميثودولوجية. حيث أنه يشكل الإطار الاثنو-ثقافي والسياج الذي يمتد من"بنغازي" شرقا، حتى المحيط الأطلسي غربا، كما أن المعطيات الثقافية والبنية الاجتماعية–الاقتصادية هي هي ذاتها، في امتدادها الجغرافي وتشابهها، في بعدها الزمني. وهو ما يفسر إلى حد ما وجود المؤسسات، التقاليد نفسها واللغة ذاتها، التي هي لسان التواصل والاتصال بين الأفراد والجماعات والتجمعات المغاربية في هذا الفضاء. ومن هنا، أليس بالإمكان التحدث الآن، عن إشكالية التزايد السكاني كمتغير مستقل، له دلالته في سبر غور تطور المجتمع المغاربي؟ أليس بإمكان الباحث الجريء، فعل ذلك سواء تعلق الأم بالعنصر الأصلي (المحلي) أم بالوافدين المتعاقبين عليه.

الكلمات المفتاحية: البربر، الفضاء المغاربي، الاركيولوجيا، الانثروبولوجيا، الشمال الافريقي، التأريخ

Abstract

Stand in this area are linked to the idea of the calm and true need fo r well-thought-out (puttingsomething into use) term maghreb.

The use of this word is significant for the value of teaching materials and way(s) of doing things. it is a (solid basic structure on which bigg er things can bebuilt) for ethno-cultural that extends from "benghazi" in the east, to the atlantic ocean to thewest, and that the (things that are common among groups of certain people) of the (related tohow much money and power people have) (basic equipment needed for a business or (community of people/all good people in the world

) to operate) is the same, in (related to wheremountains , rivers, cities, etc., are located) outreach counted / totaled, in time. Which explains alittle bit the existence of institutions , the same traditions and language it self, which is the tongueof communication between people, groupsand communities and maghreb countries in thisspace. It is here, isn't it possible to speak now, the problem of increasing population and a (thingthat you control (like study time) , that causes something else to change (like a test score)) , asignificant advance in the explored the (change for the better, over time) of the maghreb community? isn't bold, (person who works to find information) can do so either the mother of theoriginalelement (local) or (one after the other) comers?

مقدمة

تستوقفنا في هذا السياق، ضرورة موضوعية ترتبط منهجيا ومفهميا بتوظيف مصطلح الفضاء المغاربي. فاستعمال هذا اللفظ له دلالته، لما يمتاز به من قيمة بيداغوجية وميثودولوجية. حيث أنه يشكل الإطار الاثنو-ثقافي والسياج الذي يمتد من"بنغازي" شرقا، حتى المحيط الأطلسي غربا، كما أن المعطيات الثقافية والبنية الاجتماعية–الاقتصادية هي هي ذاتها، في امتدادها الجغرافي وتشابهها، في بعدها الزمني. وهو ما يفسر إلى حد ما وجود المؤسسات، التقاليد نفسها واللغة ذاتها، التي هي لسان التواصل والاتصال بين الأفراد والجماعات والتجمعات المغاربية في هذا الفضاء.[1]

ومن هنا، أليس بالإمكان التحدث الآن، عن إشكالية التزايد السكاني كمتغير مستقل، له دلالته في سبر غور تطور المجتمع المغاربي؟ أليس بإمكان الباحث الجريء، فعل ذلك سواء تعلق الأم بالعنصر الأصلي (المحلي) أم بالوافدين المتعاقبين عليه؟[2]

أولا. سياج الأطر المعرفية الجاهزة

إن ما تعودنا على معرفته، من المؤرخين والرحالة الأوروبيين أن الفضاء المغاربي، هو حيز جغرافي من دون اسم أو عنوان. والجزائر، على سبيل المثال، لا الحصر ليست معروفة ولا معرّفة تاريخيا، بالنسبة لما يحيط بها من المجموعات الدولية. وفي نظر غالبية هؤلاء، فهذا الحيز الجغرافي–"غير الثابت"- تتواجد به مجموعات بشرية (جماعات) في شكل قبائل تعيش بمناطق جبلية، سهلية أو صحراوية. وهي لا تتجاوز تكويناتها البشرية الأولية (المداشر والقرى) وامتدادها المكاني. ولم يكن بالإمكان، إذ ذاك، أن تشكل فضاءات مدنية، كما كان شأن مدن دول القارة

العجوز أي أوروبا. وفي السياق نفسه، اعتبرت هذه الجماعات البشرية، بفعل افتقارها للغة مكتوبة كأداة للتدوين، التأريخ والاتصال بغيرها من الأمم الأخرى، بلا تاريخ.
والنتيجة هي، أن اعتبر المجتمع المغاربي فضاءا يفتقد مفاهيم التجمع البشري الأكثر بروزا وهي: المدينة، الدولة والحضارة. أي أنه حيز جغرافي تتواجد به جماعات بشرية غير قارة تعيش فيما بينها، على الاقتتال من أجل تأمين متطلبات الحياة الأولية. وينعت السكان المغاربيين بكل الأوصاف؛ فهم مجموعات من الرعاة، لصوص وقطاع طرق أحيانا أخرى، وحسب آخر المصطلحات الاستعمارية الأوروبية؛ فهم "أهالي"(Indigènes)، أي دون حقوق المواطنة.

فهم لا تاريخ لهم؛ وهو ما يفسر عجزهم على تحقيق التوحد فيها بينهم والخلق والإبداع في ميادين: البناء، الصناعة والزراعة... وهو ما يؤكد لماذا كان "تاريخ" الفضاء المغاربي عبارة عن تكرار لا متناه، من الاجتياحات الخارجية، منذ فجر البشرية، حتى أيامنا الحالية: انطلاقا من قدوم الفينيقيين فالرومان... وانتهاء بالاحتلال الأوروبي، في نهاية القرن التاسع عشر. ومن ثم"فقد لا يعجب أحد" "-حسب قول أحدهم-"من الفقر الكبير الذي تتميز به عطاءات هؤلاء الناس المغاربيين ومساهماتهم في حضارة أمم البحر المتوسط، على الأقل". إن العالم هو أوروبا، فهي المرجع في مفاهيم التجمع الإنساني والتاريخ. وهي المقياس الذي يرجع إليه في رسم مستويات التحضر، التوحش أو البداوة.

لقد وصل الأمر بـ: فريديريك إنجلز Friedrich Engels الذي لم ينبهر بما حققه، الأمير عبد القادر، ضد الدخلاء الأوروبيين الفرنسيين، بل أنه أشاد بـ"هزيمة" الأمير ورحب باجتياح الجيوش الفرنسية لبقية البلاد، من قبل الجنرال توماس روبير بيجو Thomas Robert Bugeaud، بعد اتفاقية 30 ماي 1837 معلقا على ذلك بقوله: "في رأينا فإنه لأمر مبهج أن يقبض على القائد العربي". فمقاومة البدو ميؤوس منها، ومهما كان أسلوب قيادة الحرب التي قادها الجنود الغلاط أمثال "بيجو" مستنكرا، فإن غزو الجزائر حدث هام وبهيج من أجل الحضارة (...) وإذا أمكننا التأسف على حرية البدو المسلوبة، فإنه لا يمكن أن ننس أن هؤلاء، أنفسهم، يشكلون أمة لصوص".[3]

بمثل هذه الأفكار وشبيهاتها سجلت النرجسية الأوروبية أحداث وتاريخ الأمم غير الأوروبية. وفي هذه الصورة يتمظهر تطور مفهومات التجمع البشري الأساسية في شمال إفريقيا من خلال"سياج" الأدبيات الاستعمارية(الفرنسية، الأسبانية منها

والإيطالية). وتحت وطأة النرجسية الأوربيانية (L'Européocentrisme): فالعالم هو أوروبا والمعرفة والتاريخ هما أوروبا.

مما تقدم، يتجلى بوضوح أن التعتيم المعرفي والتراجيدي المضروب حول أي تواجد بشري في فضاء جيو-سياسي يجابه الحضارة الأوربية الهرمة، يحتاج إلى مجهود فكري وحفر علمي ومنهجي مثابر؛ قصد فك السياج ونفض الغبار عليه. إن الأمر لا يتعلق هنا، فحسب بعلم اجتماع معرفي مغاربي، يتناول بالنقد والتقييم المصادر المعرفية حول"المجتمع المغاربي"، وإنما يتعدى ذلك إلى ضرورة ولوج الوجود المغاربي، من خلال الانغماس في التأمل والتفكير بصدده. وتجاوز"عقبة" القوالب التفكيرية الجاهزة أي"سياج الأطر المعرفي الجاهزة". وهي تعود في غالبيتها إلى الجامعات الأوروبية التي هيمنت عليها، طيلة قرن من الزمن، النظرية الممركسة (Théorie Marxisante)، المفاهيم، المعارف والنظريات الفرويدية، الفيبرية أو الدوركايمية.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه إذا أمكن الاستعانة بهذه النظريات ومناهجها كأدوات بحثية في فهم سيرورة وتطور المجتمع المغاربي، من خلال بلورة مفاهيمه، فإن الضرورة والموضعة (Objectivation) تشترط علينا إخوائها من مضامينها الإيديولوجية الشمولية ونظرياتها الأثنو-مركزية. ذلك أن الموضوعية، في نهاية المسار، لا تبتعد كثيرا عن النظرة الشخصانية للمفاهيم والمعارف بالنظر إلى الانتماءات الاجتماعية-التاريخية والثقافية-اللغوية. وهي عقبة أولى، هذا فيما يتعلق بمسألة انطولوجيا المجتمع المغاربي وتاريخه تحديدا.

ثانيا. التسمية والبيئة الجغرافية

عرفت المنطقة الجغرافية الواقعة في الشمال الإفريقي – والتي شكلت، منذ القدم، موطنا للقبائل الأمازيغية ومدنيتها –تسميات مختلفة إلى أن وصلت إلى ما تعرف به اليوم، أي "المغرب الكبير"، فقد أطلق اليونان على هذه المنطقة اسم"ليبيا"، وذلك ليقابلوا بين هذا القسم الشمالي من إفريقيا الآهل بالسكان البيض وبين الصحراء وبلاد الأحباش السود. واستعملت، روما، لفظ "أفريقيا" على هذه المنطقة للدلالة على القسم الموافق لشمال شرقي البلاد التونسية(حاليا)، ثم ما لبثت كلمة"أفريقيا" وكلمة"ليبيا" تعنيان القارة كلها. وقبل روما سمى الفينيقيون سكان المنطقة بـ : الموهوريم (Mouhourim) أي المغاربة. واشتقت من هذه الكلمة كلمة "المور"(Maures) وموريتانيا (Mauritanie) أي بلاد المغاربة، السكان المغربيين أو بلاد السكان المغربيين.

كما عرفت هذه المنطقة، في العصور القديمة والوسطى، دويلات بربرية سمّيت في بعض الكتابات التاريخية، في القرون الوسطى ببلاد البرابرة. أما العرب القادمون من المشرق –ربما، أسوة بالفينيقيين– فقد سمّوا كل البلاد الكائنة غربي مصر بـ "جزيرة المغرب"، وأطلقوا على الجزء الغربي منها "المغرب الأقصى". وفي القرن 19م، وضع الجغرافيون عبارة"أفريقيا الصغرى" ليشيروا إلى وجود قارة صغيرة واقعة ضمن قارة كبيرة. وعبارة"بلاد الأطلس" تؤكد على أهمية تشكل الصخور التكتونية ونسبة إلى جبال الأطلس. وفي الفترة الأخيرة من الاستعمار الأوروبي، استعمل الفرنسيون ولأغراض سياسية استعمارية، عبارات: شمال أفريقيا أو أفريقيا الشمالية الفرنسية؛ كأسماء بديلة عن كلمة"المغرب الكبير".

وقد وقع تباين في تسمية هذا الفضاء الجيو- سياسي، حيث عرف عدة تسميات، فقد وقع اختلاف في تعيين حدوده، فالباحثون الفرنسيون سواء كانوا مؤرخين أو جغرافيين عمدوا إلى حصر المنطقة المغاربية بين: تونس، الجزائر والمغرب؛ انطلاقا من أن هذه الدول الثلاث كانت من الوجهة السياسية، خاضعة للاستعمار الفرنسي، وترى فيها المدارس الفرنسية قطعة منفصلة –جغرافيا- عن المجتمع الفرنسي ولكنها تابعة له تاريخيا، في حين أن قدماء اليونانيين، كانوا يعتبرون حدود الفضاء المغربي، أوسع من ذلك بكثير. بحيث أنه يضم المنطقة الكائنة غربي مصر حتى المحيط الأطلسي، وكانوا يطلقون عليها اسم "ليبيا"، بمعنى المنطقة التي تشتمل على: ليبيا الحالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى وموريتانيا. وهي التي سماها العرب الفاتحون: بلاد المغرب؛ وهي ما أطلق عليه عبارة الفضاء المغاربي.

هذا المحيط كان يشكل بيئة مواتية للمغامرين، اللصوص وقطاع الطرق للولوج إلى أعماق أفريقيا وبلاد المشرق؛ فالصحراء الكبرى تحجز (إن لم نقل أنها تعزل) منطقة البلاد المغاربية قديما بفعل تضاريسها الوعرة وصعوبة مسالكها عن البلدان الجنوب–صحراوية (النيجر، مالي، تشاد حاليا، والتي كانت في السابق امتدادا لبلاد السودان) أكثر من البحر المتوسط عن أوروبا، وهي بهذا الموقع، تعد بمثابة خط دفاعي مجابه لدول الضفة الشمالية للبحر المتوسط الأوروبية. وهي تسيطر، على المنطقة الساحلية المتوسطية الجنوبية، وبالمقابل فالسهول الساحلية، تتميز بالضيق وفي غالب الأحيان فهي تنحصر بين المناطق الجبلية، هذا من جهة.

و يزداد الأمر صعوبة عند محاولة تحديد اسم متفق عليه بالنسبة لسكان هذه المنطقة، قبل الحقبة الفينيقية-القرطاجية وبعدها؛ حيث التصقت بهم عدة تسميات

من بينها "برباري" (Barbari)"، "بربار" (BarBar) وانتهاء بالتسمية الملطفة التي أطلقها الفرنسيون وهي "بربر" (Berbères). هذه التسميات تعبر في مجملها، عن الغربة أو الاغتراب: وقد يتساءل المرء، هل سكان شمال أفريقيا غرباء حقا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فعمّن هم أغراب؟ هل هم غرباء عن غيرهم؟ إن طبيعة هذه الأسئلة تفتح المجال حول جدوى البحث، النقاش والجدل في هذا الموضوع، على مصراعيه، ومن ناحية عملية فإنها لا تقدم عناصر تخدم عملية التقصي الحقيقية إلاّ بصورة هامشية.

وفي سياق البحث عن تسمية صادقة ومعبرة تاريخيا وثقافيا عن سكان شمال أفريقيا، درج الباحثون على عدة تسميات ابتداء من الألفية الثالثة (3000 ق.م) حيث ذكرهم المصريون القدامى، وأطلقوا عليهم اسم"الليبيين"، وتمت الإشارة إليهم باسم مشابه من قبل المؤرخين الإغريق أي "اللوبيون"، وقد جاء على لسان المؤرخ الاغريقي هيرودوت Herodotus خلال القرن (5 ق.م) أن: "ليبيا هي إحدى القارات الثلاث المأهولة بالسكان"[4]. وأن ليبيا تسكنها أربع أمم اثنتان أصليتان واثنتان غير أصليتين: الليبيون (البربر) في الشمال والأثيوبيون (السود) في الجنوب أصليون. وفي موضع آخر يميز هيردوت، بين المهاجرين من الفينيقيين الذين استقروا في قرطاج وبعض المدن الساحلية. واستقر الإغريق فيما بعد في برقة.

كما ميز المؤرخ اللاتيني سالوستيوس (86-35 ق.م) G.Sallustius Crispus ضمن سكان البربر عمقا ليبيا وآخر جيتولي: "السكان الأوائل لأفريقيا هم الجيتول والليبيون"، والذين يوجد بينهما بعض التمايز من حيث نمط المعيشة "الحضر والترحال" المرتبطة بالبيئة الجغرافية؛ التي يتواجد فيها كل من العِرقين. وتشير الدراسات إلى أن المنطقة الغربية المحاذية للمملكة القرطاجية، خلال القرن الرابع ق.م، كان يطلق عليها اسم "نوميديا"، غير أن الرومان فيما بعد لقبوا سكانها بـ "البربار" (Barbares). ويمكن تفسير ذلك، نتيجة لعنف ردة فعلهم ضد الرومان واستماتتهم في محاربتهم. حيث لجئوا إلى التحصين والاحتماء في المناطق الجبلية، عصيانا لسياسية "الرومنة" التي طبقت من قبل أباطرة روما.

وفي القرون الوسطى عرفت المنطقة المغاربية ببلاد "البرابرة" أو بعبارة "جزيرة المغرب"؛ أما في القرن التاسع عشر(19م) فأطلقت عليها عبارة"أفريقيا الصغرى" أو"بلاد الأطلس"، وإذا كانت الأصول المشرقية للبربر قد احتلت حيزا هاما عند المؤرخين المسلمين، فقد أفرز الاستعمار الأوروبي الحديث نظريات عديدة حول أصول البربر، تترجمها مدرستان اثنتان:

- مدرسة تدّعي الأصول الشرقية الكنعانية، الحميرية، المضرية،
- وأخرى تدعي الأصول الهندو-أوروبية.

وعلى حد تعبير غابرييل كامبس (1927-2002) Gabriel CAMPS، فإنه من الصعب عليك، أن تجد بلدا لم يذكر كموطن للبربر، حتى أن الإنسان ليتساءل إن كان لابد أن تكون للبربر أصول خارج الفضاء الاجتماعي المغاربي؟ وكثيرا ما يرد في الكتابات التاريخية المعاصرة لفظ"الشمال الأفريقي"، أو الفضاء المغاربي[5].

ثالثا. الفضاء المغاربي. التجمع والتاريخ

اعتمادا على ما تقدم تناوله- أن المتغيرات البيئية –الجغرافية، هي في حد ذاتها إحدى العوامل الهامة التي تفسر نسبيا، عجز الاجتياحات المتعاقبة عن النفوذ إلى عمق الفضاء المغاربي واستيعابه بصورة كلية. لأن هذا العامل يجعل ميلاد مقاومات عنيدة وعديدة، في مناطق غير مدجنة أمرا ممكنا، كما أن هذه الخاصية –خاصية المقاومة والتمرد- كانت علامة بارزة في عجز السلطات المركزية للإمبراطوريات والمماليك المتعاقبة، على تحقيق الوحدة الإدارية–السياسية، بشكل مطلق ودائم. وينطبق هذا بصفة خاصة على الجزء -الأوسط- من الكيان الاجتماعي المغاربي؛ حيث تأسست دويلات وإمارات في شطريه: الشمال الشرقي والشمال الغربي، في حين تميز جزؤه الأوسط(الجزائر حاليا) بتباين مناطقه من الناحية الجغرافية وهو ما قد يفسر تمرده ضد السلطات المركزية. وبقاءه بيئة مواتية للثورات ضد الحكم المركزي والإطاحة بالدّويلات المتعاقبة، التي تأسست فيه.

وإذا عدنا إلى محاولة تحديد بداية لظهور التجمع البشري، في الفضاء المغاربي على الساحة الدولية، فإن ذلك يبدو أمرا عسيرا. ذلك أن الدراسات التاريخية والبحوث الأنثربولوجية ترجع مرحلة ظهور أولى التجمعات البشرية فيه، إلى مرحلة قدوم التجار الفينيقيين الأوائل، خلال نهاية الألفي(2000 ق.م)، ابتداء من إنشاء المصارف التجارية الأولى (Comptoirs) خاصة في الجزء الشرقي(تونس) من الشمال الإفريقي. جاءت هذه المرحلة، بعد عمليات اتصال أقامها الفينيقيون مع الأهالي ثم تلاهم بعد ذلك، عبر تعاقب المراحل التاريخية أتباعهم مثل القرطاجيين.

إن بداية ظهور التجمعات البشرية وتطورها في الفضاء المغاربي حسب المؤرخين المصريين، العبريين القدامى، الإغريق وعلماء الآثار قد حدثت خلال عصور- ما قبل-التاريخ. وأن هذا التجمع قد عرف اختلاطا وامتزاجا كبيرا بين سلالات بشرية عديدة ومختلفة، انبثقت منه نماذج بشرية متباينة من الناحية الأنثروبو-فيسيولوجية،

كما أنه منذ بداية عصور ما-قبل التاريخ، استقرت ببلاد المغرب شعوب مختلفة شديدة التباين؛ منها من امتزج بصفة عامة بالسكان الأصليين كالساميين من: الفينيقيين والعرب؛ الذين وفدوا في مراحل متعاقبة منذ العصور القديمة، ومنها من امتزج بالسكان الأصليين كالهنديين الأوروبيين(اللاتينيين، الوينـدال واليونان) والأتراك والزنوج واليهود؛ الذين أتوا في دفعات متتالية منذ أقدم العصور.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها، أن مسألة النقاء العرقي في ربوع البلاد المغاربية من القضايا التي لا تستقيم كمسلمة؛ نظرا لعمليات الاختلاط العرقي التي عرفتها المنطقة؛ منذ أقدم العصور، انطلاقا من إنسان "باليكاو"(PALIKAO)، الذي يعود بنا إلى حقبة الإنسان الحجري الأسفل؛ الذي امتزج بأجناس بشرية عديدة قدمت من الشمال، الشرق والجنوب، ويستدل المؤرخ "هربرت نيسان"(1925-2011) Hubert Nyssen عن هذا الامتزاج بالسمات البارزة في خلائق السكان إلى اليوم[6]، إذ يمكن رد تلك الخصائص **والغرائز إلى أصول ثلاثة**، وهي:

1- ابن البحر المنحدر من سلالة الفينيقيين، وهو الرجل اللبق، الشجاع المتبصر؛ الذي يكسب قوته من التجارة البحرية ويستلذ طعم التبادل التجاري.
2- ابن الجبل المتصل بالأرض اتصالا وثيقا والمثابر على العمل فيها وبدونه لا يكون شيئا. وهو واقعي ووطني قبل كل اعتبار.
3-ابن الصحراء، أخ النجوم، الخبير بها وبالأسرار الغامضة. وبفضله تحقق استثمار، الحقيقة العفوية، التي غيرت طبيعة الصحراء من جحيم إلى نعيم[7].

كما تجسدت بفضله فكرة الجماعات الدينية، في الواحات التي تحولت إلى نوع من القلاع. وبفضله تحقق تنظيم الدولة، كأول إنجاز في الواحات ذات البيئة الصحراوية، والملاحظ أن الحياة الاجتماعية والدينية قد ترعرعت في الحقبة الإسلامية، في قلب واحات الشمال الأفريقي، منها: الحركة المرابطية، الحركة الموحدية وحركة السنوسيين في جغبوب، الكفرة وفزان. ويبقى التجمع البشري الهائل من حيث التاريخ والحضارة له تقاليد، أعراف وقيم موحدة؛ مثل تمسكه بأهم المبادئ الإنسانية الخيرة: الجيرة، المعاملة بالحسنى، التمرد على الطغيان والتوق العنيف إلى الحرية.

هناك إذن، فرق بين"المعرفة" و"الأسطورة"؛ التي تستهدف وسم الثقافة البربرية بأنها ثقافة رعاة أو أن البربر هم الأفضل، الأجمل. إن التاريخ يتمثل في: توليد الخطاب

الذي يسمح به تحليل الحوادث والعلاقات بين الناس، المجتمعات والشعوب، إن سكان شمال إفريقيا، بحكم تواجدهم بهذا الفضاء الجيو-سياسي وبفعل متغيرات الجغرافيا، البيئة والتضاريس: الصحراء والبحر. ونظرا لعلاقات المد والجزر ومسايرة بقية المجتمعات البشرية الأخرى: الأوربية والمشرقية والإفريقية، طوروا عادات، أعرافا وتقاليد متميزة بهم. وكونوا بهذا تراثا ماديا ومعنويا خاصا بهم.

هكذا، خلال الألفية الأخيرة، السابقة على دخول شمال أفريقيا فعليا التاريخ، تتضح المعالم الأساسية لحضارات مجموع الشعوب البربرية. ومع ظاهرة الجفاف؛ الذي حدث نتيجة التصحر الذي فصله عن أفريقيا السمراء، انتشرت الحضارات المتوسطية القبل-تاريخية (Protohistoriques) في أفريقيا الشمالية[8] ،بإدخال التقنيات، الممارسات والمعتقدات الجديدة؛ التي تشكل لبّ الحضارة الريفية المسماة البربرية. هذه التداخلات لم تكن ممكنة، دون توطّن جماعات متوسطية جديدة، امتزجت بالجماعات (Protoméditerranéens) التي انتشرت تدريجيا منذ الحقبة القفصية التي عمرّت آخر سلالاتهما جزر الكناري.

هكذا تشكل المجتمع البربري المغاربي في حقبة، ما-قبل التاريخ (Protohistoire)، متأثرا بالمجتمعات المجاورة الأخرى. ففي المغرب الأقصى وفي القسم الغربي من الجزائر، توطنت الخصائص الثقافية الإيبيرية مثل: التعدين، صناعة الأواني الطينية على شكل أجراس، مضلعات والقبور على شكل سلّة أو مطمور. بينما توطنت، بالعكس، في الجهة الشرقية، من الجزائر وتونس، عدة خصائص من الشرق المتوسطي وعبر إيطاليا وصقليا مثل: دولمن (Dolmens)، وهي عبارة عن مدافن تحت الأرض، الخزف الملونة وبيوت مستطيلة بجدارين). أما في الجنوب وفي السهوب، فقد دجّن الفرسان أنواعا جديدة من الحيوانات وطوروا الممارسات والطقوس الجنائزية[9]. في حين أن الآثار والكتابات التاريخية؛ التي تتوفر عليها المكتبات اليوم- القديمة منها والحديثة- لا تذكر من خصائص هؤلاء السكان ونشاطاتهم، سوى قراهم الجميلة على سفوح الجبال وفقارات مزارعهم وقراهم المحصنة، في الواحات وسراب قوافل جمالهم في الصحراء.

واستنادا إلى ذلك، يمكن استخلاص نتيجة عامة وتأسيسية تتمثل في أن "الحضارة المغاربية" هي: حضارة ريفية- قروية (بلدية) وقبلية بالأساس. تكاد تنعدم فيها البقايا المدينية(نسبة إلى المدينة). فلم تكن المدن سوى مشاتل فينيقية غرست في أرض أفريقيا. ولم تتعدد مراكز الأهالي مثل"سيرتا"، إلا حينما أجبر ملوك نوميديا،

البدو على الاستقرار. لكن تلك العواصم، رغم أنها تحمل عناوين مدن فهي ليست سوى قرى متواضعة؛ إذ هي قورنت بقرطاج الفينيقية أو المدن الرومانية. ونتيجة لهذه الخصوصيات، يبدو أن السكان، بحكم الظروف البيئية وتمسكهم بالحرية، لا يظهر اتحادهم إلا في مجابهة الاعتداءات الخارجية. ويتجلى ذلك من خلال المقاومات والانتصارات المتتالية؛ التي سجلوها –رغم طول فترات الاحتلالات- ضد مختلف الغزاة منذ العهود القديمة، الوسطى وحتى الحديثة؛ أي منذ الفينيقيين، الرومان والوندال وانتهاء بالأوروبيين(الفرنسيين، الأسبان، الإيطاليين وغيرهم).

وبعبارة أخرى، فإن المسار التاريخي للفضاء الاجتماعي المغاربي المضطرب؛ منذ"يوغرطة" إلى"عبد الكريم الخطابي"، "عمر المختار" وحتى"الحرب الجزائرية" تميز بابتداع"حرب العصابات"، بهذا المعنى يصدق على المجتمع المغاربي، وصفه بأنه "شعب جبال" (Maquisards) بالغريزة وبالضرورة أيضا، ويتضح ذلك من خلال استراتيجياته في احتلال الفضاء الذي ليس بحكم الظروف الاقتصادية، بقدر ما هو من أجل الأمن والأمان. وبهذا المعنى، يمكن أن يعود تموقع السكان في المناطق الجبلية، بمثابة احتماء ضد السلطة المركزية(أو الاستعمارية)؛ التي تكون غالبا في المناطق الساحلية، ويصدق الشيء ذاته عن الحياة البدوية بالمناطق الصحراوية الآمنة والواحات، هروبا من الحكم المركزي.

رابعا. الفضاء المغاربي والتأريخ المؤدلج

إن شمال إفريقيا، حسب الاثنوغرافي الفرنسي أ.ف.غوتيه (1864-1940) Émile-Félix Gautier لم يعرف عاصمة قارة ولانهائية؛ بفعل عوامل الانتشار، لتفتت الجغرافي والعوائق؛ التي تشكلها التضاريس أمام عمليات الاتصال والتواصل الجيدة، زيادة على ذلك، هناك مخاطر ركوب الأمواج وصعوبة التحكم في البحر، بالإضافة إلى الضعف النسبي في الأراضي الزراعية، وعلل المؤرخ نفسه ذلك، بانعدام مركز طبيعي يفرضه وضعه الجغرافي وسرعة الغزوات وقلة نبات المنطقة، هذه العوامل مجتمعة تعمل على إذكاء روح الصراع والنزاع المستمرّ، بين سكان البادية وأهل الحضر، الذي لم ينته بفوز واحد على الآخر[10]، ويتضح من هذه الثنائية السجالية عن طبيعة الأهالي بالأقاليم أن هناك تفسيرا أوليا حول: لماذا كان للفضاء المغاربي على الدوام"أسياد أجانب"؛ دون تهميش فصول النزاعات والخلافات، التي تبرز بين الحين والأخر، بين أهل السهول وأهل الجبال، أما شارل أندري جوليان (1891-1991)

Charles-André Julien ، فيذهب إلى أن الباحث في التجمع البشري، في منطقة شمال إفريقيا "لا يجد ممالك (دويلات) تتسع شيئا فشيئا، إلى أن يعم سلطانها البلاد قاطبة (...) بل يجد قبائل يوحدها زعيم جرئ يؤسس ملكا بفضل غزوة جبارة ثم لا يلبث أن ينهار تحت ضربات كتلة أخرى من القبائل[11]" .

نستخلص من هذا المنظور بالطبع، فكرة مفادها أن تأسيس الدولة وتشكل الأمة، عبر تاريخ الفضاء الاجتماعي المغاربي، لا يتبلور من خلال مفاهيم المدينة أو التراب. فهما لا يعتبران من مقومات الوحدة السياسية-الاجتماعية الأساسية. وحسب " جوليان، فإنه من المؤسف حقا، أن يخلو المسار التاريخي للدول المغاربية من التواريخ المضبوطة، باستثناء فترات الوقائع الحربية؛ التي تبقى هي الملاذ الأخير الذي لا مفر للمؤرخ من الاستناد إليها.

وبناء على ذلك فقد "تجرأ" هذان المؤرخان وغيرهما، من تأكيد الأطروحة التي مؤداها: أن هذا الشعب يكتفي في أفضل الأحوال بدور"الظل الأبدي"؛ أي التبعية الدائمة للمحتل. وتعود أسباب ذلك في نظر أ.ف.غوتيه، إلى أن هذا الشعب ليست له شخصية إيجابية. بينما يعود ذلك حسب جوليان، إلى تضافر عوامل بيئية-جغرافية، حالت دون تبلور تنظيم سياسي-اجتماعي-اقتصادي، يضمن له نقلة نوعية باتجاه المدينة ومن ثم المدنية والحضارة.

إن ما يلفت الانتباه في هذه الدراسات، أنها بقدر ما هي تركز على العوامل الداخلية، في تفسير وتأويل الأحداث التاريخية؛ الخاصة بالمجتمع المغاربي فإنها تحاول تجنب وتجاهل الحديث عن العوامل الخارجية ودورها في توجيه تلك الأحداث. وبصدد هذه المسألة، نشير فقط، إلى بعض القضايا التي قد توجه مسار البحث وجهة أخرى. ذلك أن تأسيس الدولة وتكوّن الأمة عبر تاريخ الفضاء الاجتماعي المغاربي، لم يظهر إلاّ بعد تجاوز المرحلة القبلية إلى مرحلة تنظيم مافوق-قبلي. وهذا ما يفسر كيف استطاع العاهل المغاربي "مسينيسا"، تحقيق وحدة المغرب حول عاصمة قارة هي "سيرتا"، بإمكانياته الخاصة. وفي فترة مبكرة أي إبان القرن الثاني (ق.م)، حيث مهّد الطريق بذلك لمن بعده، لتكرار العملية، في مناسبات عديدة.

والأحداث التاريخية تكشف لنا، أن وحدة مملكة مسينيسا، لم تنهر تحت ضربات كتلة قبلية أخرى، كما رُوّج لذلك، وإنما بفعل تحرشات روما؛ من خلال تدخلات أرستقراطيتها وجاسوسية جاليتها وضربات جيوشها ابتداء من القائد

الروماني سيبيون الأميلي، حيث قام هذا الأخير، بطريقة لا مباشرة، بتغيير قانون الميراث الملكي وتوزيع السلطة بين أبناء مسينيسا بحجة وصية العاهل وبين أفراد الجالية الإيطالية. وكان ذلك بإيعاز ومبادرة من روما لتساهم الجالية في توجيه الأحداث بحكم الحرية المطلقة والموقع الاقتصادي-الاجتماعي والإداري الذي مكّنها منه.

كما أن جل المراجع والمصادر الوثائقية التي نستند إليها اليوم، في فهم وبحث موضوع الاجتماع المغاربي لا تمثل معينا موضوعيا موثوقا به، لإنجاز هذا المشروع. ذلك أنها مكتوبة ومؤلفة بلغات أجنبية، تتناول جوانب عديدة من الفضاء الاجتماعي المغاربي. وزيادة على ذلك فهي تستهدف بطبيعتها الأوروبيانية، تحليله ضمن أطر، مفهومات وأشكال ثقافية وأيديولوجية أخرى مغايرة، هذا الواقع ينطبق كذلك، على المسيحية واللاتينية في عهد الإمبراطورية الرومانية، كما على الإسلام، الفكر واللغة العربية إبان الحقبة الإسلامية.

إننا بهذا المعنى، نتأسف لعدم امتلاكنا لمصادر ووثائق كافية للبحث في موضوع التجمع البشري في الفضاء المغاربي، ذلك أننا مازلنا موثقين بمؤلف ش.أ. جوليان الذي صدر عام 1931؛ وأعيد طبعه عام 1951،[12] بالاعتماد على طريقة تقليدية رثة، لم تعد تتجاوب مع شروط الصرامة العلمية والكتابة الحديثة عن الظواهر الاجتماعية-التاريخية؛ مثلما هو الشأن بالنسبة للفضاء الاجتماعي المغاربي. هذه إذن، عقبة منهجية ثانية، يجب تجاوزها لموضعة عملية الكتابة والدراسة العلمية للموضوع.

خامسا. الفضاء المغاربي والاركيولوجيا

من الأمور العويصة محاولة الولوج إلى مرحلة ما قبل (2000 ق.م) سنة من تاريخ الشمال الإفريقي؛ بهدف التنقيب عن أصول الإنسان المغاربي. ذلك أن ما تم اكتشافه، حتى الآن ، من قبل علماء الآثار والأنثربولوجيا من مخلفات أثرية وآدمية، يرجع إلى فترة متأخرة تعود إلى بداية وحتى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين؛ وهي فترة ازدهار الاستعمار الأوروبي واهتمام مدارسه الفكرية التاريخية-الاستعمارية بالمنطقة، لقد اضطلع بتلك المكتشفات، من بقايا وآثار، باحثون أجانب كانت النتائج التي تم توصلهم إليها مثار جدل فيما بينهم، الأمر الذي قد يكوّن مجالا خصبا للشك، الريبة والبلبلة، ويضعف من إمكانية الاعتماد عليها كمصدر من قبل باحثين لاحقين.

غير أن ما أمكن الاتفاق حوله، وما أكدته آثار وبقايا أثرية لمرحلتي: العصر الحجري المتوسط والعصر الحجري الأعلى وربما العصر الحديث، هو ما تم اكتشافه

من قبل علماء الآثار والأناسة المجتمعية من مخلفات آدمية، يعود إلى ما اصطلح على تسميته بـ "إنسان الرباط"، الذي يبدو أنه كان يعيش في المغرب الأقصى، أثناء العصر الحجري المتوسط. وإنسان "مشتى العربي" الذي اكتشف بالقرب من مدينة شلغوم العيد (قسنطينة). والذي كان يعيش في الجزائر وفي مختلف جهات الفضاء المغاربي، في مرحلة العصر الحجري الأعلى. واعتمادا على الأدوات وبقايا التراث المادي المكتشفة، يضع علماء الآثار "إنسان الرباط" ونماذج البقايا البشرية المماثلة له، التي تم العثور عليها في منطقة "طنجة" (بالمملكة المغربية) في "مغارة العالية" على بعد 13 كلم جنوب غربي هذه المدينة منذ 1939م، ضمن مرحلة العصر الحجري المتوسط.

أما بالنسبة لتطور الجنس البشري، فيضع علماء الأنثروبولوجيا إنسان الرباط مع الإنسان النياندرتالي (Néanderthalien)، الذي يؤكد المؤرخون تواجده الأول، بمنطقة فلسطين الحالية. كما يؤكد هؤلاء، أن خصائص "إنسان الرباط" ودلائله البدائية، هي خصائص النياندرتال نفسها ودلائله البدائية. وحسب هنري فيكتور فالوا (1889-1981) Henri Victor Vallois، "فهو شخص قصير القامة، عظيم الهامة، طويل الوجه، مفلطح الجمجمة، محدود المدارك العقلية، محروم-على ما يبدو- من المشاغل الجمالية"[13]. وحسب علماء الآثار، يتجلى من مخلفات"إنسان الرباط" أنه كان، شأنه شأن غيره من النياندرتاليين، يجد ضرورة عيشه اليومي في طبيعة حارة، رطبة... ولاشك أنه كان لا يخضع في آخر الأمر إلاّ إلى متطلبات غريزة البقاء. وباكتشاف إنسان الرباط أصبح العلماء اليوم، متيقنين من أن وجود جنس النياندرتاليين أو جنس شبيه به صار أمرا ثابتا على الأقل، بالنسبة للجزء الغربي من الشمال الأفريقي. ولا يجزمون بشيء عن أصله رغم أن هناك (راشيد الناظوري) من ينسبه إلى إنسان فلسطين...[14].

وبالارتقاء التدريجي مع السلالات البشرية، فإن غالبية المنقبين في الفضاء المغاربي يعتقدون، بأن البقايا الأثرية للحضارتين(المويبه-المغربية أو المويلح) نسبة إلى "مويلح" (Mouillah) قرب مدينة مغنية جنوب وهران والقفصية(Capsienne) في الشمال الإفريقي، تدل على أن مؤسس هاتين الحضارتين في العصر الحجري الأعلى، يمثله ما اصطلح على تسميته بإنسان"مشتى العربي"؛ الذي يمكن اعتباره فرعا من إنسان البحر المتوسط والذي يرى فيه"فالوا" أن نماذجه ليست من جنس واحد ولكنها تنحدر من فرع واحد أصله في القسم الشرقي من البحر المتوسط.

وإنسان"مشتى العربي"؛ الذي اكتشف في محلزة قريبة من مدينة شلغوم العيد بالجزائر عام 1907م، من قبل"ج.مرسيي"(G. Marçais). إن إنسان"مشتى العربي" قد حدد بطريقة دقيقة وكاملة، منذ 1934م، من قبل كل من الباحثين"م.بول، هـ.ف.لوفالوا"(M.Boule, H-v.Vallois) وذلك من خلال سلسلة اكتشافات بقايا نماذج بشرية مماثلة له، سنة 1928م، في مغارة "آفالو بورمال" قرب مدينة بجاية، من قبل كاميل أرمبوغ (1885–1969) Camille Arambourg والتي سمحت بإعطاء معرفة أفضل عن هذه البشرية الماقبل-تاريخية.

و قد أوضح ليونيل بلوط (1907-1992) Lionel Balout ، أن هناك وحدة عرقية لا مراء فيها، مهما كانت آثار تنوعات وانطواء المجموعات الماقبل-تاريخية وزواجها الداخلي، وفي مقاطع أخرى من منطقة قسنطينة وبمناطق وسط وشرق الجزائر وبالواجهة الأطلسية من المغرب الأقصى[15]، ويصنف إنسان "مشتى العربي"، بالنسبة إلى تطور الجنس البشري مع فصيلة الإنسان العاقل (Homo Sapiens) الذي عاش في العصر الحجري الأعلى. وتؤكد خصائص هذا الإنسان ونماذجه، حسب فالوا وأرمبورغ على انتمائه إلى فصيلة الإنسان العاقل، فهو"إنسان مديد القامة (1.72م) مستطيل الرأس، طويل الأطراف، خشن الوجه، بهيمي السحنة. وخاصيته الرئيسية في جميع نماذجه المعروفة، قد قطعت القواطع من أسنانها"[16].

ويبدو أن هذا الجنس البشري، قد عمّر الفضاء المغاربي في مجمله، لأن آثارا له قد اكتشفت في الواجهة الأطلسية من المغرب الأقصى بـ "دار السلطان" بالقرب من الرباط. ويعتبر جيان ديزنج والأركيولوجي الإنجليزي"ماك بري" أن القفصيين جنس ينتمي إلى إنسان "مشتى العربي"؛ الذي ينسبانه إلى جنس إنسان البحر المتوسط، الذي عرف منذ، ما-قبل التاريخ، بالعيش في جوار هذا البحر[17].

لكن الإنسان القفصي، لم يحتل سوى منطقة محدودة من الجنوب الشرقي للفضاء المغاربي (الجنوب التونسي ومنطقة الشرقية المحاذية له في الجزائر). إن الأبحاث الحديثة وما تبعها في منطقتي ريللي الأوتاد (Relilai El-outed) من قبل دانيلوا غريبينارت (1935) Danilo Grébénart ، كشفت أن الإنسان القفصي متواجد بكثرة في منطقة شمال النمامشة. ويرتكز في منطقة جنوب تبسة في نصف دائرة قطرها 100 كلم. ومثلما هو شأن الإيبيروموريسيين، يدفن القفصيون موتاهم بتزيينهم مثلهم، كما أنهم يتميزون بخصائص فنية وتركوا شواهد منحوتة ومنقوشة

تخلد فنّهم، كل هذه المظاهر تعبر عن نشاطات وسيكولوجية أكثر تعقيدا[18]، ولا يعود ذلك فقط، إلى حداثتهم لكن إلى تطور نوع بشري لم تتغير نشاطاته الفنية، إلا في نهاية العصر الحجري الجديد. ونظرا لكون الإنسان القفصي يمثل حضارة أفريقية، فهو يكون قد وصل إلى المغرب عن طريق الجنوب والجنوب الشرقي. وقد دافع عن هذا الرأي ليونيل بلوط[19]. نلاحظ إذن، أن في الإنسان القفصي الذي تبدو أصوله من الشرق الأدنى، قرابة متوسطية، أفريقية وشرقية. ويبدو إذن، أن الخصائص الأساسية للفضاء المغاربي الاجتماعي-التاريخي تتأرجح بين هذه الأقطاب الثلاثة، دون أن تنفصل عنها وذلك منذ القرنين(8 و6 ق.م).

هذه المعطيات هي التي تكون قد دفعت بالبعض إلى اعتبار الإنسان القفصي، اعتمادا على المواصفات الفيسيولوجية، امتدادا لسلالة الإنسان الصحراوي؛ المتميز بميل بشرته إلى السّواد. وفي الأخير، فإنه بالنسبة لأصل الأبيروموريسي أو إنسان"مشتى العربي"توجد فرضيتان تعتمد إحداهما على الأخرى -تركزان على المصادرة التي تقول بـ: ضرورة الربط بين السلالة البشرية والصناعة– تمتلكان مشروعية إرضاء العقل وتتأسسان على أدلة تقنية وزمنية تتجاوز، في غالب الأحيان، مجرد التكهن. ويبدو في النهاية أن أصله ليس محليا ولكنه يعود إلى الشرق. وتجدر الإشارة في هذا الإطار، وكما سبق وأن ذكرنا، إلى أنه وحتى متوسط السبعينيات من القرن العشرين، كما يتجلى ذلك في أغلبية الفروع العلمية أن الأبحاث، بشأن مرحلة ما-قبل تاريخ الشمال الإفريقي، كان يضطلع به باحثون أجانب وهم من صنّف المغاربة؛ بما في ذلك القفصيين ضمن سلالة"البحر المتوسط".

كما أنهم صنّفوا البربر في العصر الحاضر، إلى نماذج بشرية متنوعة؛ منها من له صلة بجنس البحر المتوسط ومنها من له صلة بأجناس آسيا الصغرى ومنها من له صلة بالجنس الأوروبي الشمالي. ومثل هذه التصنيفات لا تخلو من تعسف وخلط وقد لا يستند فيها أصحابها إلى قاعدة مكينة. ومثل هذه الأبحاث في ميدان الأنثربولوجيا مدعاة لإثارة قضايا معقدة ذات نتائج سلبية وخطيرة، في أكثر الأحوال. حتى أن الأوروبيين أنفسهم، المعتدّين بترابطهم القومي باتوا اليوم، كما يقول أنتا ديوب (Anta Diop(1923-1986 يحرصون على تجنب بحث مجتمعاتهم وفقا لفروض مثيرة للخلاف كهذه، ولكنهم يسترسلون دون تفكير، في تطبيق مناهج البحث التقليدية على التجمعات البشرية غير الأوروبية"[20].

ونحن نعتقد أن مقولة"الجنس المتوسطي"، في ظل المعطيات الحديثة، هي مقولة فضفاضة، لا تستند إلى أسس علمية؛ لإطلاقها، أحيانا بشكل مبهم. ولكنها لا تستوعب أيضا، عوامل التطور والهجرات المتنوعة في الأزمنة السحيقة؛ التي لا نعرف عنها إلاّ الشيء القليل: سواء في الحقل البيولوجي، المناخي أو في ما عدا ذلك من مجمل التطورات والتحولات غير المعروفة.

هذه الإشكالية، دفعت بكثير من الباحثين والعلماء الأوروبيين إلى تجاهل مثل هذه النظرية وعدم الاكتراث بها في تحليل وتقدير بعض القضايا؛ التي ترتبط بمسألة الأصول الإثنية لأهل شمال لأفريقيا، على وجه التحديد. إن مقولة الجنس المتوسطي ترمي، في حقيقتها في جانبها الثقافي-الاستعماري- إلى ربط شرقي المتوسط وجنوبه بأوروبا، باعتبارها المصدر، الجهة الفاعلة ومركز الاستقطاب. ومهما يكن من أمر، فإننا بالاستناد إلى ما سبق، واعتمادا على بحوث حديثة، يمكننا الاعتقاد بأن الإنسان المغاربي القديم، الذي عمر الفضاء المغاربي، في عصور ما-قبل التاريخ، يستمد أصوله من عنصرين أساسيين هما: "إنسان مشتى العربي" وإنسان ما-قبل المتوسطي (Périméditerranéen) أي "إنسان الرباط".

يمكننا القول أنه حتى العصر الحجري الحديث (Néolithique)، فقد استمر أحفاده في امتلاك الفضاء المغاربي وتعميره. ولم يحدث إبّان تلك الحقبة أن حدثت ثورة جنسية (طفرة)، غير أنه كثيرا ما كان يعاني من وقت لآخر، من تأثير عناصر زنجية؛ مثلما حدث ذلك في منطقة "الرّديّف" بالجنوب التونسي. وبفعل عوامل الاتصال والتواصل؛ التي قامت بها مجموعات بشرية مهاجرة أخرى عديدة، إلى منطقة شمال إفريقيا، لم تدم تلك النقاوة العرقية. وقد تعود أصول تلك التجمعات البشرية إلى منطقة الشرق العربي الحالية بصورة خاصة. ذلك أن المناطق الصحراوية مثلت واحاتها: مناطق عبور رئيسية، بعد ظهور عملية استئناس وتدجين الحيوانات، مزاولة الرعي والنشاط الزراعي، وهو ما شجع الإنسان على الترحال ثم الاستقرار النسبي. ولا نعتمد في هذا بطبيعة الحال، لا على العوامل الأنثروبولوجية والحفريات الأثرية وعوامل الهجرة فحسب، بل أيضا، على ملاحظات أغلبها قديمة ومستمدة من السكان الحاليين؛ التي تبرز تنوّعهم الإنثولوجي.

الخاتمة

وفي كل الحالات نعتقد أن تاريخ المجتمع المغاربي، لا يجب إعادة بنائه بإعمال منهجية"مدرسة الحوليات"(Ecole des annales). وفيما عدا ذلك لا توجد إلا المدرسة

الفرنسية التي تجتهد في فصل، مرحلة ما-قبل التاريخ، عن الأنثروبولوجيا. وفي مقابل تلك المدرسة، تنطلق المدرسة الأنجلوسكسونية من جهتها من الأنثربولوجيا؛ أي من عالم الإنسان وثقافاته الحفرية، السابقة والحالية. هذا الموقف والتوجه الأنثربو-ميتودولوجي (Anthropométhodologie)، هو أكثر صدقا والتصاقا بمجتمعاتنا، التي يشكل التقليد فيها آلية ديمومة التجمعات البشرية المغاربية.

وتجدر الإشارة في هذا المقام، إلى أنه بمجرد أن أفضت إيديولوجية المعركة (الحرب التحريرية) إلى الاستقلال وبعث مفهوم الدولة-الأمة، فإن هذه السيرورة التاريخية؛ التي واصلها التجمع البشري في منطقة شمال إفريقيا، هي تتويج لعمل الشرائع الاجتماعية العريقة. والتي أدت إلى ترسيخ مفهوم الدولة القطرية، بدل الدولة القومية، ستؤدي إلى خلق عقبة إضافية أمام المعرفة الموضوعية، عن حقيقة التجمع البشري في الفضاء المغاربي الحديث، ذلك أنه عوض أن يساهم هذا المفهوم في تحرير الفضاء الاجتماعي المغاربي وانعتاقه الفكري، فقد أفضى إلى تحجّر الخلق والإبداع العلمي وتراكم الفقر الفكري. وحال هكذا، مفهوم الدولة القطرية، دون انبثاق أي فكر حرّ، وهنا نجد أنفسنا أمام عقبة ثالثة رئيسية، يجب التنويه بجبروتها وهيمنتها.

إن التاريخ والذاكرة المجتمعية المغاربية (المخفية أو المصادرة) تعاود الظهور عبر التقصي، إرادة المعرفة والاكتشاف. هذا الميدان يجب أن يفتحه المؤرخون، السوسيولوجيون ومختلف الباحثين في العلوم الاجتماعية، لأن بقاءه مغلقا يثير الحفيظة ويبعث على الخنق الاجتماعي، ويمكن في هذا السياق، أن يكون"العنف" بكل أشكاله الرمزية والمادية، مرتبطا بسوء المعاملة، اضطراب وفقدان الذاكرة. أو التساؤل عن احتمال وجود علاقة، بين القلق الاجتماعي والذاكرة المبتورة لهذا الفضاء الاجتماعي-السياسي.

أخيرا وأمام هذه التحديات، يجدر بالباحث في إشكالية الفضاء الاجتماعي المغاربي، أن يغامر وزاده في ذلك، التعقل، الفطنة والتمرّد ضد "سلطان" الأطر التفسيرية الجاهزة ليتجاوز أطر أيديولوجيا الدولة القطرية المتكلسة. ويعيد بناء مواد وركام الموضوع، بالتوجه نحو المستقبل، بما يعطي هذا الفضاء الجيو-سياسي ثقلا حضاريا ودورا متميزا، في مسار التجمعات البشرية المتوسطية، على الأقل.

الهوامش:

1 - محمد أركون، الفضاء الاجتماعي والتاريخي للمغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ص-ص 31-32.

2 - بوخريسة بوبكر، الدولة والمجتمع. دراسة سوسيولوجية نقدية في تاريخانية الفضاء المغاربي، دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق، 2005، التقديم.

3- F. Engels, Northern.star, Vol X,1848 In Lewis S.Feuer, Philosophy, London, 1969, PP 488-489.

4 - محمد الصغير غانم، مدخل للعلاقات الحضارية بين المغرب والمشرق القديمين، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 02، جامعة قسنطينة، 1991، ص 33.

5 -Gabriel Camps, Les Berbères, aux marges de l'Histoire, Édition : Les Hespérides, 1980, pp 100- 107

6- Hubert Nyssan , l' Algérie telle que je l'ai vue, 1970, pp 74-83.

7- أنور العقاد، هذا الوطن العربي. دراسات في المجتمع العربي، مكتبة الشرق، حلب، 1963، ص 38. أنظر، محمد المهدي بن علي سغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980، ص7.

8- الفترة الزمنية التي تقع بين مرحلة ما قبل التاريخ وفجر التاريخ.

9- Gabriel Camps, Les civilisations préhistoriques de l'afrique du nord et du Sahara, Doin Editeurs, Paris, 1974, P 348.

10- شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، ص 34.

11- Charles-André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine 1. La conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871, Paris, PUF, 1964.

12- Charles-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord : Des origines à 1830, Payot & Rivages, 1994 (réimpr. 1969) (1re éd. 1951), 866 p.

Version d'une édition de 1931 : revue et mise à jour avec l'aide de Christian Courtois (« Livre I : Des origines à la conquête arabe [647 apr. J.-C.] ») et de Roger Le Tourneau (« Livre II : De la conquête arabe à 1830 ») ; telle que publiée en 1951 puis republiée en 1969 et 1994.

13-Henri Victor Vallois, Les Races humaines, PUF, coll. « « Que sais-je ? » n° 146 », 1976, pp 96-98.

14- شارل أندريه جوليان، مرجع سابق، ص 34.

15- راشيد الناظوري، المغرب الكبير، ج1،جامعة الإسكندرية، 1966، ص 68.

- 16Lionel Balout, les Hommes préhistoriques du Maghreb et du Sahara, Published by Alger, Imprimerie Officielle du Gouvernement d'Algérie, 1958, pp 83-89.

17- جيان ديزنج، البربر الأصليون، تاريخ أفريقيا العام، ج2، اليونسكو، باريس، 1983، ص 432.

18- Danilo Grébénart, Le Capsien des régions de Tébessa et d'Ouled-Djellal (Algérie). Contribution à son étude, éd. Université de Provence, Aix-en-Provence, 1976, pp 172-178.

19- Lionel Balout, préhistoire de l'afrique du nord: essai de chronologie, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1955, pp 45-62.

20- Anta Diop, Civilisation ou barbarie, Paris, Présence africaine, 1981, pp 112-115.